

الدراسة الأولى:

الشيعة من وجهة نظر تاريخية في لبنان

د. خليل أرزوني⁽¹⁾



ليس من شك أن البحث في تأريخ الطائفة الشيعية في هذه الفترة، هو جهد ضروري لاستيعاب سياق الأحداث السياسية والاجتماعية في لبنان منذ إعلان "دولة لبنان الكبير" في بدايات القرن العشرين وحتى اللحظة: فأبناء هذه الطائفة كانوا وقود تلك الأحداث، وباتوا خلال الخمسين سنة الماضية الفئة الأساسية بين الفئات اللبنانية على الصعيد السياسي، بل يمكن القول إن أبناء هذه الطائفة بدأوا يقبضون على دفة الشأن السياسي اللبناني، صعوداً أو هبوطاً....

وللإمساك بتأريخهم، لا بد أولاً، اختصار مشهد التكوّن السكاني منذ منتصف القرن الثامن الميلادي في "المقاطعات اللبنانية" مع الإشارة إلى أن استعمال مصطلح "المقاطعات اللبنانية" هو تصحيح للكثير من الكتابات التي تعنون: لبنان في العهد العباسي، لبنان في العهد المملوكي، لبنان في العهد العثماني الخ.. في تلك العهود لم يكن مصطلح "لبنان" قيد الاستعمال، كان هناك تسمية جبل لبنان كما كانت تسمية جبل الشيخ وتسمية جبل عامل.... وكلنا نعلم أن لبنان الحالي هو دولة حديثة من نتائج فرض اتفاقية سايكس - بيكو عام 1920. سنحاول متابعة وجود أبناء هذه الطائفة منذ بدايته حتى الآن.

(1) أستاذ متقاعد من الجامعة اللبنانية.

أولاً: التكوّن السكاني في المناطق اللبنانية

1- أصول السكان في المقاطعات اللبنانية

ليس من السهل الإحاطة بكل القبائل والعائلات التي انتقلت من الرافدين وشبه الجزيرة العربية، خلال قرون طويلة بُعيد الفتح العربي . الإسلامي، إلى ساحل الشام والجبال المشرفة عليه أي لبنان الراهن؛ ما سيرد ليس إلا عينة من فيض القبائل والعائلات الوافدة. ظلّ الساحل اللبناني مفصلاً أساسياً في خطة الدفاع الأموية أمام احتمال عودة الاعتداءات البيزنطية على بلاد الشام برا وبحرا. فاعتمد الأمويون سياسة نقل القبائل العربية، ومنحهم إقطاعات وامتيازات لتشجيعها على السكن والاستقرار في ساحل الشام، وذلك قبل نشوء المذاهب والطوائف. واستمرت هذه السياسة وأتبعَتْ من قبل الخلفاء والحكام طوال العهود العباسية والسلجوقية ومملوكية: فهذا أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء العباسيين، استقدم عام 758م القبائل التنوخية للاستقرار في سفوح جبل لبنان لتقوم بحماية الساحل بدءاً من نهر الكلب شمالي بيروت وحتى مدينة صيدا جنوباً.⁽¹⁾ فقد كانت "الإمارة التنوخية النواة الأولى في حركة الاستيطان الجديدة والتي وجد فيها العباسيون ما يغنيهم عن إرسال الجيوش النظامية لتأمين الاستقرار في المنطقة والدفاع عنها"⁽²⁾. فواجهوا الصليبيين الفرنجة لدى مهاجمتهم مدينة بيروت عام 1110م.⁽³⁾

وخلال المرحلة العباسية الأولى، انتقلت سلما قبيلة بني عاملة من جنوب فلسطين إلى جنوب المقاطعات اللبنانية، واستقرت في هضاب أعلى الجليل، فحملت اسمها، هضاب جبل عامل.⁽⁴⁾ وفي عهد أبي جعفر المنصور أيضاً، وبناء لطلبه، انتقلت قبيلة اللخمين إلى المقاطعات اللبنانية بقيادة الأميرين منذر وإرسلان على رأس عدة آلاف نسمة.⁽⁵⁾ وفي أواخر القرن الحادي عشر، كان قدوم بني معن (المعنيين) الذين غادروا جوار حلب، واستقروا في

(1) عبد المجيد عبد الملك، "ساحل الشام والصراعات الدولية"، دار بيسان، الطبعة الثانية، صفحات 91-116-117.

(2) منير إسماعيل، "التكوين السكاني والاجتماعي"، بحث مشارك في ندوة "كتابة تاريخ لبنان إلى أين"، جمعية متخرجي المقاصد، بيروت 1993، ص 106.

(3) عبد المجيد عبد الملك، مرجع مذكور، ص 116، هامش 6.

(4) محمد ربحان، "جند الخليفة: تاريخ بني عاملة حتى نهاية العهد الأموي"، مكتبة نوفل، بيروت 2008، ص 230.

(5) طنوس الشدياق، "أخبار الأعيان في جبل لبنان"، مكتبة الوفاء، بيروت 1954، ص 278.

منطقة الشوف.⁽¹⁾ وخلال ذات الفترة، وبناءً لطلب حاكم دمشق السلجوقي "طفتغين"، انتقل إلى الهضاب المطلّة على بيروت عدد آخر من القبائل العربية كآل نكد وآل تلحوق لمحاربة الصليبيين على أثر سقوط بيروت في يدهم عام 1110م.⁽²⁾ ومع بدء انحسار سلطة الفاطميين في بلاد الشام، قامت في مدينة صور إمارة بني عقيل، وفي طرابلس إمارة بني عمار، التي تركت تأثيراً بارزاً في المنطقة وتحديدًا في المجال الثقافي⁽³⁾، ومن منطقة حوران في بلاد الشام، حوالي منتصف القرن الثاني عشر، نزحت قبيلة بني شهاب (الشهابيون)، وكانوا قرابة 15 ألفاً نسمة أقاموا في وادي التيم.⁽⁴⁾ هؤلاء، الذين تقدّم ذكرهم، استقدموا من قبل الحكام المسلمين في الداخل، بهدف حماية السواحل في مواجهة الهجمات البيزنطية وتُثمّن في محاربة الصليبيين لاحقاً.

في بداية عهد المماليك، وفي سبيل توطيد حكمهم في المناطق الداخلية، استقدموا عائلات من التركمان والأكراد لمراقبة المناطق الداخلية المتمردة على سلطتهم.⁽⁵⁾ كما أسكنوا عدة أسر في الساحل بين انطلياس وطرابلس، أشهرها بنو عساف التركمان وبنو سيفا الأكراد، وانصهروا انصهاراً كاملاً في المجتمع الذي نزلوا فيه.⁽⁶⁾ وقد برز التركمان كقوة محلية في العهد العثماني وفي مقدمتهم آل عساف الذين حكموا منطقة كسروان حيث كان آل حبيش الموارنة وكلاء يديرون شؤونهم.⁽⁷⁾

وبعد أن استقرت البلاد لحكم العثمانيين، تمكن آل حمادة في البقاع من الدخول إلى جبة بشري شمالي جبل لبنان حوالي عام 1547م، واستوطنوا بعض القرى هناك، وسرعان ما فرضوا سلطتهم المحلية على الموارنة سكان بشري لدرجة أن الرحالة الفرنسي "دار فيو" كتب يقول أنه: "حين أراد زيارة البطريرك في قنوبين استأذن القبائل الحمادية فأوصلوه إلى البطريرك

(1) محمد أمين المجبي، "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر"، المطبعة الوهابية، الجزء الأول، ص 266 - 267.

(2) أبو يعلى حمزة ابن القلاسي، "ذيل تاريخ دمشق"، منشورات الآباء اليسوعيين، بيروت 1908، ص 169 - 171.

(3) منير إسماعيل، "التكوين السكاني والاجتماعي"، مرجع مذكور، ص 107.

(4) حيدر الشهابي، "الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان"، دار الأثار، طبعة ثانية، بيروت 1980، ص 363.

(5) محمد علي مكي، "لبنان من 635م إلى 1516م"، دار النهار للنشر، بيروت، 1979، ص 56.

(6) منير إسماعيل، "التكوين السكاني والاجتماعي"، مرجع مذكور، ص 107 - 108.

(7) كمال الصليبي، "بيت بمنازل كثيرة"، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة نوفل، ط 1، بيروت 1990، ص 29.

الماروني⁽¹⁾. وقد دخل في نسيج التكوين السكاني عائلات وأسر أخرى كثيرة في مختلف مناطق ساحل الشام والهضاب المواجهة للساحل، منهم آل حبيش وآل حرفوش الذين كان لهم "حضور على الصعيدين السياسي والاجتماعي، امتدّ أحياناً خارج المناطق التي أقاموا فيها، كما دخل آل الصغير وفروعهم إلى جبل عامل حيث بسطوا نفوذهم"⁽²⁾. إذن، بعض هؤلاء العشائر والقبائل جاء على أثر طلب وتشجيع من قبل الحكام المسلمين من أمويين وعباسيين وسلاجقة ومماليك، والبعض الآخر نزع من تلقاء نفسه بسبب عوامل الجذب في ساحل الشام، خاصة أنه لم يكن يوجد حدود سياسية ولا موانع طبيعية ولا محذورات دينية أو مذهبية تقف أمام حراكهم ونزوحهم. والقسم الكبير من هذه القبائل والعائلات جاء كردّ فعل إزاء المخاطر التي كانت تهدد ساحل الشام من قبل البيزنطيين والصليبيين الفرنجة. وليس لأي دافع ديني، ولم تكن الطوائف قد اتخذت "شكل سياسي خاص" كما هو سائد خلال القرنين الماضيين.

2- هل كان اللبنانيون طائفيين؟؟

لا يصح الحديث عن التكوين أو التكوّن السكاني في لبنان خاصة، دون التطرق إلى المكونات الطائفية فيه، ذلك أن حشر عدد كبير من الطوائف في مساحة جغرافية ضيقة كمساحة لبنان دون أن تشكل إحداها أكثرية سكانية ساحقة، جعل تطور هذه الطوائف عاملاً مؤثراً في تاريخ لبنان الحديث والمعاصر. غير أن الطوائف اللبنانية لم تتصارع سوى خلال الحرب الأهلية اللبنانية عام 1975 بسبب التدخلات الخارجية. أما في العصور السابقة العربية والمملوكية والعثمانية، لم يسجل التأريخ صدمات لأهداف طائفية، فمعظم الطوائف اللبنانية تشاركت في وحدة شروط النشأة التاريخية ووحدة التماثل في التراث والنسب وفي وحدة البنية الاقتصادية الاجتماعية والتشابه في المحصلة الثقافية والتعليمية، وأخيراً في وحدة السلطة العليا الحاكمة.⁽³⁾

(1) الجنرال بيار روندو، "الطوائف في الدولة اللبنانية"، ترجمة إلياس عبود، دار الكتاب الحديث، بيروت 1984، ص 76.

(2) منير إسماعيل، "التكوين السكاني"، مرجع مذکور، ص 108.

(3) للاطلاع على تفاصيل "وحدة" الطوائف، يمكن مراجعة كتاب "الطوائف والطائفية، متى، لماذا، وكيف؟" الصادر في بيروت عام 2012، الدار الإنسانية، صفحات 151 حتى 167.

وعلى صعيد آخر، أشار الرحالة والعالم الفرنسي "فولني" في مطلع القرن التاسع عشر إلى شدة التشابه بين الدروز والموارنة في أساليب العيش واللهجة والعادات والآداب العامة.⁽¹⁾، وقد أشار رحالة فرنسي آخر زار بلادنا عام 1843 إلى شدة تشابه الموارنة مع باقي الشرقيين بقوله: "بشكل عام لا يمكننا أن نميّز أي شيء في حياة الأمراء والمشايخ الموارنة عن غيرهم من الشرقيين، إنه المزيج نفسه من العادات."⁽²⁾

إن أجداد الجسم الرئيسي للبناني اليوم هم عرب وإن "رفضه" قسم من اللبنانيين من "نخب" أو عامة. ورفض هؤلاء يُذكر بالتساؤل الكبير الذي أورده المؤرخ والمفكر المسيحي، قسطنطين زرق، حين كتب يسأل: "كَمْ بيننا مَنْ يعرف معرفة صحيحة مَنْ نحن وكيف تكوّننا، وما هي حقيقة شخصيتنا وجوهر روحنا؟ كَمْ بيننا، بكلمة أخرى، مَنْ يفتح في نفسه الوعي القومي المُلتفت إلى الماضي؟"⁽³⁾

قد "يتشاطر" بعض "المحللين" فيقولون: وماذا عن الصراع الدموي الذي وقع بين الموارنة والدروز في زمن القائمقاميتين عام 1841 وأدى إلى مئات الضحايا من الفريقين؟؟ أليس هذا صراع طائفي بين الطائفتين؟؟... أجيب بكل وضوح: لم يكن هذا الصراع الدموي سوى بين الزعماء المقاطعبيين للموارنة والدروز لتوسيع النفوذ وحصر جباية الضرائب للسلطة العثمانية، وحسب التقاليد ينجر العامة لحمل السلاح مع الزعماء... حرب القائمقاميتين ليست حرب طائفية، ودليل منطقي لا لبس فيه: لو كان العامة من كل طرف يرفض ويسعى لقتل العامة في الطرف الآخر، لَمَا كانت البلدات والقرى التي سكانها من الطرفين مازالت تحتضن سكانها من الطرفين، الموارنة والدروز.!

الطائفية من زراعة الاستعمار الفرنسي، فهو "فحّخ" الدستور اللبناني عام 1926 بمواد تفرض حتمية ولادة الطائفية وإقامة النظام الطائفي، منها المواد 8 و9 و10. المادة 10 من الدستور، على سبيل المثال، تسمح للطوائف أن تقيم مدارس خاصة بها. يديرها بالطبع رجال الدين من مشايخ ورهبان، وهدف هؤلاء ربط التلامذة بالطائفة وتمجيدها. وخلال عقدين من الزمن ابتلت عدة أجيال من اللبنانيين بالتعصب الطائفي ابتداءً من أربعينات القرن العشرين...

(1) فيليب حتي، "تاريخ لبنان"، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت 1972، ص 485.

(2) G.De Nerval, "Voyage en Orient", Librairie Juiard, Paris 1964, T2, p 9.

(3) قسطنطين زريق، "الوعي القومي... في الشرق العربي"، المجلد الأول، بيروت 1965 ص 71.

وهلمجرا. وزاد الطين بلة، كما كتب أدمون ربّاط، "أن في ذات كل طائفة نوعا من النزعة السلفية الموروثة إلى أن تكون أمة".⁽¹⁾

يوجد في لبنان خلال القرن الماضي حوالي 18 طائفة، استطاع كل منها أن يتمظهر بالسياسة المحلية بسبب حراك رجال الدين في المدارس الطائفية وتحالفهم مع أمراء السياسة، أبرزها الموارنة والسنة والشيعة والدروز.

ثانياً: الشيعة في لبنان

1- نشأة التشيع من وجهة نظر تاريخية

بُعِد الانشقاق السياسي الأول بين المسلمين إثر مسألة التحكيم بين معاوية والخليفة الراشدي الرابع الإمام علي بن أبي طالب، انضوى تحت اسم "شيعة الإمام علي" (بمعنى جماعة الإمام علي) الفئات التي عارضت مبايعة معاوية بالخلافة والطامعة بها. وسرعان ما تفكك الصف المعارض إلى فرق سياسية، وفرق سياسية دينية. فخرج من شيعة الإمام وفي أوقات متباعدة: الخوارج، الشيعة الإمامية، الزيدية، الإسماعيلية، النصرية، وغيرها من الفرق السياسية الدينية. والشيعة الموجودون اليوم في لبنان ينتمون بأكثريتهم الساحقة للشيعة الإمامية.

تعتقد الشيعة الأمامية بأحقية الإمام علي بالخلافة بعد الرسول(ص)، وإنها تستمر في أولاده وأحفاده الإثني عشرة. وقد أرسى فقه هذا المذهب الإمام جعفر الصادق (وهو الإمام السادس) في بداية العصر العباسي الأول⁽²⁾ وقد عُرفت الطائفة "بالجعفرية" نسبة إليه. ويشكل الشيعة الجعفرية اليوم الطائفة الإسلامية الأكبر عددا في الوطن العربي بعد السنة.

ورد في بعض المصادر الشيعية اللبنانية أن التشيع في الشام وفي المقاطعات اللبنانية كان على يد أحد صحابة الرسول أبي ذر الغفاري. لكن ذلك منافياً للمنطق إذ أن أبا ذر كان قد توفي قُبيل خلافة الإمام علي. وهناك مصادر شيعية أخرى ترى أن التشيع انتشر في بلاد الشام وفي المقاطعات اللبنانية منها "في أوائل المئة الثالثة للهجرة، وازداد في أواخرها"⁽³⁾، أي خلال القرن العاشر الميلادي. وقد زار الرحالة "خسرو" مدينتي صور وطرابلس في أواسط

(1) ذكره جوزيف أبو خليل، "لبنان إلى أين؟"، شركة المطبوعات، بيروت 1992، ص 80.

(2) الشيخ عبد الله نعمه، "روح التشيع" دار الفكر اللبناني، بيروت 1985م، ص 310.

(3) السيد محسن الأمين، "خطط جبل عامل"، الدار العالمية، الطبعة الثانية، بيروت 1985، ص 85.

القرن الحادي عشر وأشار إلى أن أكثرية سكانهما من الشيعة⁽¹⁾. وازداد تواجدهم في طرابلس بعد أن تشيَّع أمراء بني عمار الذين حكموا المدينة بين 1069 و1102م، ثم تمددوا حتى مدينة جبيل.⁽²⁾ وكانت منطقة كسروان قد شهدت تواجدًا شيعيًا كثيفًا خلال العهد الصليبي إذ أن احتلال الصليبيين للساحل دفع الشيعة إلى الانكفاء باتجاه جبال كسروان.

2- الحركة الشيعية بين أخذ ورد:

بلغت الحركة الشيعية عصرها الذهبي في المقاطعات اللبنانية خلال القرن الحادي عشر مستفيدة من قيام الدولة الفاطمية في مصر وفي الشام، فقامت إمارات محلية ذات أغلبية شيعية في طرابلس وحلب وصور وأجزاء من فلسطين. لكن الوضع ما لبث أن تغيَّر بعد استيلاء نور الدين زنكي على سورية، فرأى في الفرق الشيعية وغير الشيعية عوامل خلل وانقسام في بناء دولته، فاتبع سياسة التضييق على هذه الفرق، فأبطل الشعائر الشيعية الدينية التي كانت تُمارس علناً، وكان يهدف من وراء ذلك، محاولة توحيد المسلمين في وجه الفرنجة.⁽³⁾ لكن الضغوط الشديدة التي واجهت الشيعة كانت من جانب المماليك: فقد ورث المماليك الحكم الزنكي في سورية، وسعوا إلى توحيد الفرق الإسلامية على أساس المذاهب السنية الأربعة، إذ أمر السلطان الظاهر بيبرس بـ" ألا يولى قاضي ولا يُقبل شهادة أحدٍ ولا يُرشد لإحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب" (أي المذاهب السنية)⁽⁴⁾، دون أي تعرض للطوائف الأخرى الإسلامية والمسيحية. وما أن فرغ المماليك من طرد الصليبيين عام 1291م حتى باسروا بحملات عسكرية شديدة ضد سكان كسروان ومعظمهم من الشيعة بين عامي 1292 و1305م.

وانقاءً لأساليب القمع والتتكيل التي استمر المماليك على ممارستها بحقهم، اعتمد السكان الشيعة مبدأ "التقية" الذي يسمح للشيعي بالتظاهر مؤقتاً بأنه ينتمي إلى غير مذهبه حفاظاً على حياته، ومنهم من تحوَّل عملياً للمسيحية وإحدى مذاهب السُّنة. وهذا، ربما، يُفسِّر تطابق

(1) ذكره المرجع السابق نقلاً عن كتابات الرحالة، ص 86.

(2) بيار رونودو، " الطوائف في الدولة اللبنانية"، ترجمة إلياس عبود، دار الكتاب الحديث، بيروت 1984، ص 71.

(3) محمد علي مكي، "لبنان من 635 حتى 1516"، دار النهار للنشر، بيروت 1979، ص 150.

(4) المرجع السابق محمد علي مكي، ص 150.

أسماء العائلات لدى الطوائف كآل هاشم وحسيني وحاج، كما يفسر منشأ بعض الجماعات السنية التي ظهرت في المناطق الداخلية في قرى البقاع الأوسط وغيرها.

3- الشيعة اللبنانيون في العصر العثماني:

في مطلع العهد العثماني عاد الشيعة للتكاثر في كسروان وقرى جبيل، لكنهم في عهد إمارة فخر الدين الذي شجع نزوح الموارنة باتجاه وسط الجبل، دون أية صدامات مع الشيعة الذين نزحوا، سلماً، باتجاه بيروت وجبل عامل الذي أصبح المركز الرئيسي لشيعة المقاطعات اللبنانية، ومركزاً للتشيع خارج حدوده عبر العديد من المدارس الدينية المذهبية.

وقد توزعت العائلات المقاطعية الشيعية البارزة كل أراضي جبل عامل، فحكم نواحي الشقيف آل صعب، وإقليم الشومر والتفاح آل منكر، وانفرد آل شكر "برئاسة" العائلات الشيعية حتى عام 1649، (كلمة "رياسة" تعني الأكثر أهمية ونفوذاً). واستمرت رياستهم إلى حين سيطر آل الصغير كأهم عائلة مقاطعية في جبل عامل حتى نهاية العهد العثماني.⁽¹⁾ لا بد من الإشارة إلى أن المقاطعيين الشيعة انتموا لعدة عائلات حكمت مناطقهم حكماً داخلياً، على غرار المقاطعيين الدرزي والموارنة وجميعهم رعايا الدولة العثمانية، وهو حكم سائد في المقاطعات اللبنانية تمنحه لهم السلطة العثمانية عبر الولاة والأمراء.

أما عامة السكان في جبل عامل من الشيعة، فقد كانوا فلاحين ومزارعين وأجراء يعيشون بأكثرية تحت رحمة العائلات المقاطعية الشيعية، مثلهم مثل عامة السكان لدى مناطق سيطرة العائلات المارونية والدرزية. عامة السكان الشيعة حملوا السلاح في خدمة أمرائهم الذين قادوهم إلى معارك دامية ومستمرة ضد الأمراء المعنيين ثم الشهابيين وضد الولاة المجاورين الذين كانوا يحاولون توسيع مناطق نفوذهم لجباية الضرائب.

أسفرت هذه المعارك عن "تخريب" عدد من قرى في جبل عامل وتشريد فلاحها؛ يكفي الإشارة إلى أن بلدة إنصار أبيحت ثلاثة أيام عام 1638 على يد الأمير ملحم المعني، وبعد قرن من الزمن، عام 1743م، تعرضت لمذبحة مماثلة على يد الأمير ملحم الشهابي. لقد جرى عدة معارك بين زعماء الشيعة وبين الأمراء المعنيين والشهابيين ليس لأسباب طائفية، بل لدفع

(1) السيد محسن الأمين، "خطط جبل عامل"، الدار العاملة، ط 1، بيروت 1983، ص 44.

الضرائب من قبل الأمراء وتمتع زعماء الطائفة عن تسديدها. كما جرت معارك بين الزعماء المقاطعيين الشيعة وبين ولاية عكا كان أبرزها وأكثرها دموية معركة "صدر القتلى" عام 1783م في بلدة شحور العاملة⁽¹⁾ بوصفها آنذاك مقر أمراء بني النصار.

لهذه المعارك والحروب نتائج مدمرة وشديدة القسوة على عامة السكان في جبل عامل، "فتحولوا إلى مجموعات كبيرة من أشد فلاحى لبنان فقرا في تاريخه الحديث".⁽²⁾ وقد عاش عامة السكان الشيعة فيما يشبه العزلة خلال العهد العثماني، لا يعرفون عن "العلم والعالم الخارجي" سوى ما يقوله ويسوقه الوسيط المزوج المتشكل من مشايخ المذهب والزعماء.

خلال هذه الفترة، تفرغ رجال الطائفة المشايخ المتخصصون لنشر التشيع داخل جبل عامل وخارجه عن طريق فتح المدارس التي تدرس الفقه الجعفري واللغة والتاريخ.⁽³⁾ وقد حاز هؤلاء على تقدير واحترام عامة الناس والزعماء المقاطعيين على حدٍ سواء نظرا للمكانة المذهبية التي يتبوأونها، ولم تتحدث المصادر الشيعية ولا المصادر التاريخية الأخرى عن أي اضطهاد أو تعسف قام به الزعماء المقاطعيون الشيعة ضدهم، وقد يعود السبب إلى أنهم اكتفوا بـ "السلطة الدينية" دون السلطة الزمنية. كما أن المصادر لم تُسجل موقفا بارزا لهم ضد تعسف واضطهاد وظلم المقاطعيين لعامة الناس من الشيعة طوال العهود المملوكية والعثمانية.

وحين ظهرت الحركات الراضية للسلطة العثمانية بدءًا من عام 1875، انخرط أبناء الشيعة، كغيرهم من الموارنة والدروز والسنة، في هذه الحركات الراضية للعثمانيين، وكان المشاركون منهم بالعشرات، نذكر منهم الشهيد عبد الكريم خليل ابن الشياح الذي تمّ شنقه مع آخرين في ساحة الشهداء من قبل جمال باشا عام 1915. ونذكر منهم الشيخ أحمد عارف الزين صاحب مجلة العرفان الذي كان مندوب تنظيم "العربية الفتاة" في صيدا الذي واجه السلطة العثمانية. (تجدد الإشارة للتوضيح أن مصطلح "شيخ" كان يعني مرتبة "وجاهة اجتماعية" ولم يكن الشيخ أحمد رجل دين).

(1) للاطلاع على نتائج هذه المعركة المدمرة راجع: خليل أرزوني، "تاريخ شحور الاجتماعي" الدار الإنسانية، الطبعة الأولى، بيروت 2001، صفحات 65-72.

(2) مسعود ضاهر، "الانتفاضات اللبنانية ضد النظام المقاطعي"، دار الفارابي، الطبعة الأولى، بيروت 1988، ص 44.

(3) للاطلاع على دور وأهمية هذه المدارس على الصعيد المذهبي، راجع: محمد جابر صفا، "تاريخ جبل عامل"، دار النهار للنشر، الطبعة الثانية، بيروت 1981، صفحات 233-252.

3- الشيعة اللبنانيون في عهد الاستعمار الفرنسي:

عندما دخل الفرنسيون الساحل اللبناني، اعتقدوا بأن الطائفة الشيعية ستؤازرهم، لأن الشيعة كانوا مضطهدين أثناء الحكم العثماني، لكن الجنرال غورو فوجئ بمواقفهم المؤيدة للانضمام إلى الحكم الفيصلي في دمشق. وترجموا مواقفهم عملياً بالمشاركة في المؤتمر السوري، وباللقاء الذي عقده مع لجنة كنج- كراين، وفد من وجهاء جبل عامل يضم الشيخ حسين مغنية والسيد عبد الحسين شرف الدين، وأبدوا رأيهم في مصير بلادهم حيث قدموا مذكرة خطية يرفضون بها تجزئة البلاد وسيطرة الفرنسيين، وتوافق زعماء السنة والشيعة على رفض تنفيذ اتفاقية سايكس بيكو وتقسيم المنطقة وعقدوا عدة مؤتمرات علنية،⁽¹⁾ يطالبون الانضمام إلى دولة الملك فيصل ابن الشريف حسين في دمشق، وكان أحد وجهاء الشيعة، الإمام عبد الحسين شرف الدين ناشطاً في هذا الحراك: فقد عقد مؤتمر وادي الحجر الشهير في نيسان 1920 مع معظم الزعماء الشيعة بهدف الانضمام لمملكة دمشق، وتشكّلت فرق قتالية لمواجهة الفرنسيين، أبرزها فرقتا صادق حمزة وأدهم خنجر التي سببت للفرنسيين خسائر فادحة - بحسب جريدة البشير الموالية للفرنسيين - كان ينقص هذه الفرق الرؤية السياسية الكاملة، ولمواجهة هذه الفرق شجّع الجنرال غورو قيام منظماتٍ مسيحية موالية له، فانتقل النزاع إلى صراعٍ طائفي بين المسيحيين الموالين للفرنسيين والشيعة الموالين للحكم الفيصلي. وبتاريخ 18 أيار 1920 وعلى أثر حادثة بسيطة بين أبناء بلديتي عين ابل وبننت جبيل توجهت حملة عسكرية فرنسية بقيادة الجنرال نيجر إلى جبل عامل للقضاء على الثورة، حاول الملك فيصل مؤازرة أهالي جبل عامل، فأرسل لهم الأسلحة والمعدات الطبية، إلا أن كامل الأسعد رفض استلام هذه المساعدات وأرجعها إلى دمشق، وأمر القرى الموالية له على عدم التعرض للحملة الفرنسية، وبسبب عدم وجود السلاح، وفتح الطريق أمام الفرنسيين، استطاع الكولونيل نيجر إخضاع جبل عامل واعتقال قاداته وأعيانه، وفرّ بعضهم إلى خارج البلاد، وفرض على الأهالي دفع تعويض قدره مئة ألف جنيه ذهباً إلى أهالي عين ابل. أما كامل الأسعد فلقد كافأه الفرنسيون وأبقوا له موقعه الإقطاعي كزعيم لجبل عامل، ونفذوا وعودهم له بتسجيل مساحاتٍ شاسعةٍ من الأراضي باسمه

(1) تفاصيل عن المؤتمرات في: حسان حلاق، "مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة، الدار الجامعية، بيروت 1982.

واسم أفراد عائلته وحاشيته⁽¹⁾ وكانت حملة "الكولونيل نيجر" تهدف لاعتقال المناوئين للوجود الفرنسي في حزيران 1920، ودخل الكولونيل بلدة شحور العاملة فجر الخامس من حزيران لاعتقال الإمام عبد الحسين شرف الدين، لكن الإمام تسلل إلى وادي الليطاني، وغادر إلى دمشق، فانتقم الكولونيل بحرق مكتبته ومنزله ودخل شوارع البلدة لإرهاب السكان⁽²⁾.

4- سلاح أبناء الشيعة في مواجهة الجيش الفرنسي:

إذا كان موقف زعماء المقاطعبيين المسيحيين، موارنة وغير موارنة، مهادن أو حيادي إزاء الوجود الفرنسي، وإذا كان معظم زعماء السنة والشيعة كانوا سياسياً وعلناً ضد هذا الوجود، فإن من أبناء الشيعة وحدهم حملوا السلاح في وجه الجيش الفرنسي في لبنان: فقد ورد في مذكرات الشيخ أحمد رضا كشاهد عيان أن الجيش الفرنسي مربك في تثقله خوفاً من تعرضه لرصاص الرافضين لوجوده⁽³⁾. كما أن انتفاضات مسلحة قامت ضد الجيش الفرنسي في بريتل بقيادة ملحم قاسم، وفي سرايا بعلبك بقيادة توفيق حيدر، وانتفضت الهرمل في وجه الجيش الفرنسي بقيادة زين الدين جعفر⁽⁴⁾. وكان أبرز المناضلين ضد الفرنسيين صادق حمزة الفاعور وهو من بلدة دبعل في قضاء صور⁽⁵⁾ وأدهم خنجر من بلدة المروانية قضاء النبطية⁽⁶⁾.

لعل أهم المعارك التي خاضها صادق حمزة كانت غارة مفاجئة تحولت إلى معركة في بلدة قعقعية الجسر قرب النبطية في كانون الثاني 1920، أسفرت عن مقتل العديد من الفرنسيين،

(1) يراجع كتابنا تاريخ بلادنا ومنطلق تاريخ اللبنانيين - الدار الإنسانية بيروت 2010 ص 234.

(2) تفاصيل عن نشاط الإمام عبد الحسين شرف الدين في: خليل أرزوني، تاريخ شحور الاجتماعي"، مرجع مذكور، صفات 422 حتى 427.

(3) المتكرات منشورة في مجلة العرفان، مجلد 33، جزء 8، صفحة 123.

(4) كريم مروة "المقاومة: التجربة والأفاق"، دار الفارابي، بيروت، 1985، صفحة 182.

(5) تفاصيل عن حياته ونشاطه في: علي مرتضى الأمين، "صادق حمزة الفاعور 1894-1926"، منشورات دار حيدر، بيروت 1977، نقلا عن مذكرات محمد رضا المنشورة في مجلة العرفان، مجلد 33 و34.

(6) تفاصيل عن حياته ونشاطه في: جهاد بنوت، "أدهم خنجر"، الحركة الثقافية في لبنان، بيروت 1988، صفحات 15.

وفرَّ الباقون باتجاه النبطية، فاستولى صادق حمزة على كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر. وكانت جريدة "البشير" البيروتية والمالية للفرنسيين قد أسهبت في شرح تفاصيل هذه المعركة⁽¹⁾. وكان صادق حمزة وأدهم خنجر قد سيطرا على جسر الخردلي بعد مقتل ثلاثة جنود فرنسيين وفرار مَنْ بقي حيًّا من الفرقة الفرنسية في الموقع. وقام أدهم خنجر بالعديد من الغارات على طرق مواصلات الجيش الفرنسي؛ فقد حاول اغتيال الجنرال غورو وهو في طريقه لزيارة الأمير محمود فاعور في القنطرة، "قتل أمين سره الكومندان "برانيه"، وأصيب مرافقه حقي بك العظم حاكم دولة سورية آنذاك⁽²⁾، وكَمَن أدهم خنجر لدورية فرنسية تحمل البريد الرسمي على الطريق الساحلي قرب مغاور عدلون وقتل ثلاثة من أفرادها، وهاجم المطار العسكري الفرنسي قرب صيدا وأحرق إحدى الطائرات العسكرية⁽³⁾.

بعد عام 1920، اتضح لصادق حمزة وأدهم خنجر أن لا فائدة تُرجى ولا قدرة لهما في متابعة المقاومة، فتوارا مع العديد من رجالهما في مرتفعات الجولان، ثم اتجه صادق حمزة نحو غور الأردن ودخل في خدمة الأمير عبد الله ابن الشريف حسين الذي أصبح، بمساعٍ بريطانية، أول ملك للمملكة الأردنية الهاشمية. بينما لجأ أدهم خنجر عام 1926 إلى قصر زعيم دروز السويداء في سوريا، سلطان باشا الأطرش، فاعتقلته فرقة فرنسية على باب القصر، ونقلته بطائرة عسكرية إلى بيروت حيث أعدم رمياً بالرصاص.

قبل أن أختم هذه المرحلة من تأريخ الشيعة في لبنان، من المفيد ذكر رأي الإمام عبد الحسين شرف الدين في كتابه "بغية الراغبين..". لتأكيد أن موقف الشيعة ضد الفرنسيين لم يكن لأي هدفٍ طائفي أو ديني، بل هو موقف قومي عربي إيديولوجي، فقد كتب يقول: "وهكذا قدّر لهذا الجبل أن يخفق، فكان إخفاقه سببًا في إخفاق القضية السورية، لأنه كان المرحلة التجريبية التي جرأتُ فرنسا، بعدئذٍ، على سوريا.. ولكن الأمة العربية مُمتحنة في تاريخها الحافل بالنهضات والكبوات.."⁽⁴⁾

(1) جريدة البشير في بيروت، عدد 13 كانون الثاني، 1920.

(2) سلام الراسي، "ثلاثا تضيع"، مؤسسة نوفل، بيروت 1980، صفحة 95.

(3) أدهم الجندي، "تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب" مطبعة دار الإتحاد، دمشق 1960، صفحة 187.

(4) الإمام عبد الحسين شرف الدين، "بغية الراغبين في سلسلة آل شرف الدين"، الدار الإسلامية، ط 1، ج 2، بيروت

4- الشيعة اللبنانيون في عهد الاستقلال اللبناني:

مواقف أبناء الشيعة خلال الاستقلال بمعظمها مواقف وطنية، وهي معروفة للمهتمين بسبب حداثتها، "يغفلها" البعض لأسباب طائفية وسياسية، وهو مشهد راهن لا حاجة لرسمه بتفصيل لحداثته.

لم يكن أبناء الشيعة مع بداية الاستقلال اللبناني يشكلون إطارًا طائفيًا ذات "تجمع" سياسي متماسك كبقية الطوائف اللبنانية، وأوضاعهم الاقتصادية سيئة بسبب النزوح للمدن، وكانوا بمعظمهم منتسبين للأحزاب الوطنية والطائفية اللبنانية. وكانت مناطقهم مهملة وعرضة مستمرة للاعتداءات الإسرائيلية، تجاوزت 140 اعتداء بين 1948 و1965⁽¹⁾. فجاء الإمام موسى الصدر خلال الستينات، وعمل على جعلها طائفة سياسية متماسكة تناغمًا مع النظام الطائفي القائم في لبنان. وحين بدأ الإمام الصدر بمواجهة العدو الإسرائيلي والتف حوله الألوف من اللبنانيين من غير الشيعة، تمّ التخطيط لخطفه، فكان اعتقاله عام 1979.

والمعروف أن أبناء الطائفة الشيعية ومن يؤيدهم من بقية الطوائف ومن العلمانيين والمدنيين اللبنانيين، حملوا لواء محاربة العدو منذ 1990 ليس لأسباب طائفية أو دينية، بل لسببين: الأول أن العدو طامع بالتوسع وإبادة الفلسطينيين، مناهضته من قبل الشيعة، ومن غيرهم، ووقوفهم، عمليًا، مع سكان غزة (السنة) هو موقف قومي عربي وليس موقف طائفي. والسبب الثاني أن أماكن تواجد معظم أبناء الشيعة في جنوب لبنان والبقاع تنصدر أولويات الاعتداءات والمطامع الإسرائيلية... فهم أيضًا، الشيعة، يدافعون عن أرضهم ووجودهم، وهذا حق مشروع في كل الشرائع الوطنية والدولية....

ولا بد، أيضًا، من إشارة للمساعدات التي حصل عليها المقاومون الشيعة من دولة إيران في مواجهة العدو، مساعدات لا تعني أنها لأسباب طائفية لتتنطبق الانتماء المذهبي، ولا تعني أن الشيعة في لبنان أصبحوا إيرانيين أو فرس كما يردد البعض، وهذا لا يمنع أن لإيران أهداف أخرى... ولو حصل المقاومون على مساعدات من أي دولة أخرى حتى "الموزمبيق"، لأدى لهم المقاومون تحية الشكر والتقدير.

(1) المركز العربي للمعلومات، "الاعتداءات الإسرائيلية، يوميات. وثائق مواقف"، بيروت 1986، صفحات 11. 36.

لا داعي للتحدث عن مواقف أبناء الشيعة من أحداث لبنان الراهنة في مواجهة العدو الإسرائيلي منذ توقف الحرب الأهلية عام 1990 وحتى اليوم، وهي معروفة بتفاصيلها لدى معظم المهتمين اللبنانيين، والبعض منهم يتغافل عنها عمدًا.

المراجع والمصادر

- عبد المجيد عبد الملك، "ساحل الشام والصراعات الدولية"، دار بيسان، الطبعة الثانية.
- منير إسماعيل، "التكوين السكاني والاجتماعي"، بحث مشارك في ندوة "كتابة تاريخ لبنان إلى أين"، جمعية متخرجي المقاصد، بيروت 1993.
- محمد ریحان، "جند الخليفة: تاريخ بني عاملة حتى نهاية العهد الأموي"، مكتبة نوفل، بيروت.
- طنوس الشدياق، "أخبار الأعيان في جبل لبنان"، مكتبة الوفاء، بيروت 1954.
- محمد أمين المجبي، "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر"، المطبعة الوهابية، الجزء الأول.
- أبو يعلى حمزة ابن القلاسي، "ذيل تاريخ دمشق"، منشورات الآباء اليسوعيين، بيروت 1908.
- حيدر الشهابي، "الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان"، دار الأثار، طبعة ثانية، بيروت 1980.
- محمد علي مكي، "لبنان من 635م إلى 1516م"، دار النهار للنشر، بيروت، 1979.
- كمال الصليبي، "بيت بمنازل كثيرة"، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة نوفل، ط 1، بيروت 1990.
- بيار روندو، "الطوائف في الدولة اللبنانية"، ترجمة إلياس عبود، دار الكتاب الحديث، بيروت 1984.
- خليل أرزوني "الطوائف والطائفية، متى، لماذا، وكيف؟"، الدار الإنسانية، بيروت 2012.
- فيليب حتي، "تاريخ لبنان"، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت 1972.
- قسطنطين زريق، "الوعي القومي... في الشرق العربي"، المجلد الأول، بيروت 1965.
- ذكره جوزيف أبو خليل، "لبنان إلى أين؟"، شركة المطبوعات، بيروت 1992.
- الشيخ عبدالله نعمة، "روح التشيع" دار الفكر اللبناني، بيروت 1985.
- السيد محسن الأمين، "خطط جبل عامل"، الدار العالمية، الطبعة الثانية، بيروت 1985.
- بيار روندو، "الطوائف في الدولة اللبنانية"، ترجمة إلياس عبود، دار الكتاب الحديث، بيروت 1984.
- محمد علي مكي، "لبنان من 635 حتى 1516"، دار النهار للنشر، بيروت 1979.
- السيد محسن الأمين، "خطط جبل عامل"، الدار العالمية، ط 1، بيروت 1983.
- خليل أرزوني، "تاريخ شحور الاجتماعي"، الدار الإنسانية، الطبعة الأولى، بيروت 2001.

- مسعود ضاهر، "الانتفاضات اللبنانية ضد النظام المقاطعي"، دار الفارابي، الطبعة الأولى، بيروت 1988.
- محمد جابر صفاء، "تاريخ جبل عامل"، دار لنهار للنشر، الطبعة الثانية، بيروت 1981.
- كريم مروة "المقاومة: التجربة والأفاق"، دار الفارابي، بيروت، 1985.
- علي مرتضى الأمين، "صادق حمزة الفاعور 1894. 1926"، منشورات دار حيدر، بيروت 1977.
- جهاد بنوت، "أدهم خنجر"، الحركة الثقافية في لبنان، بيروت 1988.
- جريدة البشير في بيروت، عدد 13 كانون الثاني، 1920.
- سلام الراسي، "ثلاث تضيع"، مؤسسة نوفل، بيروت 1980.
- أدهم الجندي، "تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب" مطبعة دار الإتحاد، دمشق 1960..
- الإمام عبد الحسين شرف الدين، "غية الراغبين في سلسلة آل شرف الدين"، الدار الإسلامية، ط 1، ج 2، بيروت 1991.
- المركز العربي للمعلومات، "الاعتداءات الإسرائيلية، يوميات. وثائق مواقف"، بيروت 1986.
- G.De Nerval, "Voyage en Orient", Librairie Juiard, Paris 1964, T2.